لوحاته ميدان اتصال وانفصال بين الابيض والاسود . الفنان الجزائري رشيد قريشي : آفاق ما بعد الحداثة وتفكيك الحروفية العربية

تفاصيل النشر:
المصدر: الوسط
الكاتب: عمار الجندي
تاريخ النشر(م): 1/8/1994
تاريخ النشر (هـ): 24/2/1415
منشأ: لندن
رقم العدد: 131
الباب/ الصفحة: 56 - 57 - ثقافة

يحاول رشيد قريشي أن يجمع في أعماله النحتية وتشكيلاته الحروفية بين أشكال تعبير عدّة، وبين روافد ثقافية مختلفة تعطي لتجربته، ذات البعد العالمي، طابعاً رياديا وفريداً. هنا تناول لعوالم هذا الفنان الجزائري الذي يقيم ويعمل في تونس، والذي خاض قبل أشهر تجربة شاملة تزاوج عناصر الفرجة والاحتفال مع عناصر سمعية وبصرية أخرى.

مع تجربة رشيد قريشي، ها هو الحرف العربي يدقّ ابواب العالمية حاملاً على متنه ارثاً غرافيكياً يتوق الى الانعتاق. فمغامرة هذا الفنان الجزائري الذي يقيم ويعمل في تونس منذ سنوات، يمكن اختصارها بالسعي الدائم الى الايغال في فضاء بكر ينزع الى اكتناه جماليات الحرف العربي، وتحريرها من أسرها الزماني والمكاني. ومشروع قريشي حقق في الآونة الأخيرة نقلة مفاجئة، تمثلت في السعي الى الامساك بالحبال السرية التي تصل الحرف بالموسيقى والرقص والغناء.

وتوليف الحرف بأنماط فنية أخرى لايمثل اضافة قريشي الوحيدة الى الحركة الحروفية الجزائرية والعربية. اذ ان مزاوجة الخط العربي بالياباني، التي اشتغل عليها بعض رموز هذه الحركة، هي لديه عملية ذات مسار وطبيعة مختلفتين. ففيما اتخذت عند علي سيلام و عبدالله بن خدة طابعاً "حداثياً" تجلى في الحفاظ على الإرث التصويري ومحاولة تطعيمه بعناصر غرافيكية يابانية، صارت هذه المزاوجة على يدي قريشي لعبة "ما بعد حداثية" تطمح الى تفكيك الحرف العربي و دمجه بالياباني بهدف سبر اغوار جمالية جديدة.

ولوحات قريشي، ككثير من نتاج زملائه العرب، ميدان اتصال وانفصال بين الابيض والاسود اللذين يبرز كل منهما بفضل اختلافه الضوئي الحاد عن الآخر. لكنه يوسع المجال في اعماله لعناصر اخرى متباينة، تتفاعل مضفية على حروفياته حركية غير مألوفة في سائر التجارب التي استلهمت الخط العربي. هذا التداخل قائم بين الكتلة والفراغ في المقصوصات الفولاذية التي تبدو شبكة تجريدية تشبه الحروف في امتداداتها و انثناءاتها. والاستطالات الفولاذية تتلاقى وتتباعد لترسم فجوات متعددة الاشكال و الاحجام. كما تضيق المساحات الفارغة في الالواح البيضاء التي زرعها قريشي بخطوط سوداء توشك ان تضيع وسط دفق من كلمات صغيرة تنداح على اللوحة لتخط أشكالاً وبنائيات هندسية شتى.

أما المساحات البيضاء والفجوات التي يتسلل عبرها الهواء الى المحفورات، فهي وإن غابت لا تجرّد الاثر الفني من العناصر المتباينة التي تدفع التناغم الهارموني الى نهاياته القصوى. اذ ان عناق الحرفين العربي و الياباني، الحاضر بدلالاته الزمانية والمكانية في اعمال قريشي على انواعها، لايمثل علاقة تفاعل بين عنصرين مختلفين وانما هو بؤرة يتوحد فيها كلاهما. هكذا ينحلّ، في هذه التوليفات، التراثي القديم بالعالمي الراهن، ويبدو الخط بعربيته الواهية طيّعاً، يستقي من الحروف اليابانية تشكيلاتها.

إيحاءات دلالية جديدة

وصهر الابجديتين الذي يتجلى في المقصوصات والمحفورات خصوصاً، هو ارتقاء بعملية الكشف عن الخبايا الجمالية للحروف. فحين تمحي الحدود بين الاثنين، تغدو الحروف العربية خطوطاً غير مألوفة، لابل "طلاسم" مستعصية على أي قراءة مباشرة. وتحرير الحرف من لبوسه المعتاد، يبرز طاقاته التصويرية من حيث هو تشكيل فني، ويشحنه بايحاءات دلالية جديدة. والحديث عن هاجس تجاوز المألوف وسبر جماليات الابجدية، يفضي الى سر اتخاذ قريشي اليابانية، أو الصينية، مدخلاً يحاول ان يلج

عبره الى أفق حضاري شامل.

فبخلاف العربية أو اللغات اللاتينية مثلاً، ليست حروف الابجدية اليابانية والصينية ترجمة كتابية لصوت ما يشكل مع حروف أخرى كلمة لها معنى محدد، بل هي مفردات ترسم الفكرة أو الشيء المقصود. واليابانية، تلك اللغة الـ "ايديوغرافية" مثل الصينية والهيروغليفية، على ثراء تصويري عز نظيره بين اللغات المتداولة حالياً. وقد يفسر ذلك لجوء فنانين عالميين الى محاكاتها، منهم الفرنسي جورج ماتيو الذي استلهم منها بعض نتاجه. وعدا ماتيو الذي نراه في أعمال قريشي، تذكر مقصوصات هذا الاخير بمسطحات الاميركي كالدير.

الذاكرة الشعبية

وهذا الانفتاح على العالم وتمثل مفرداته الفنية الحديثة لا يغيّب التراث من نتاج قريشي الذي ينتسب الى الثقافة العربية وينهل، بشكل أو آخر، من ماضيها الفني. فمقصوصاته تنويعات مبتكرة تجد جذورها الغرافيكية في مسرح الظل الاسلامي. كما تؤلف محفوراته مجموعات سباعية من صفائح معدنية تحمل نقوشاً اقرب الى الاحجية. وكان عرض نخبة منها في باريس تحت عنوان "البوابات السبع المطلة على رحاب الفلك الاعلى"، ولا شك أن البعد التراثي هو الذي شده الى الرقم 7 الزاخر بالدلالات الراسخة في الذاكرة الشعبية...

والدرامية التي يولدها التفاعل بين ثنائية الماضي/ التراثي والحاضر/ العالمي، غدت اكثر تأججا حين دخلت الحروفيات ضمن "الجوقة" التي أدّت "ليالي البخور". فالقريشي، مصمم العرض المذكور الذي استضافه مسرح قرطاج المفتوح، جعل حروفياته جزءاً من خلفية لعبة مشهدية، ارتفعت فيها أصوات تغني الحب والحنين في زمن المآساة، وانعقدت فيها الرقصات على انغام جمعت التقليدي الاصيل بالغريب المستورد. وتوزعت الحروفيات مع حرير مطرز وجرار فخارية و توابيت فينيقية ومآذن نحاسية صغيرة وفوانيس برونزية و قضبان من البامبو، على اطراف المسرح الذي تعبق اجواؤه ببخور ضمّخ المكان بذكريات موكب الفرح والاعياد، ومجالس السمر في رمضان كما تنعقد في الحواري الشعبية بأزقتها الحميمة.

وامعاناً في تصعيد النبض التعبيري التراثي، عاود قريشي توظيف الرقم 7. فالاشياء المشلوحة على المسرح هي مجموعات سباعية شكلت "كورساً" صاحب حورية عايشي الاوراسية، فاطمة ميراندا الاسبانية، فرقة فليتا الكورسيكية، وفرقة "العازفات" التونسية.

واذا كان ذوبان الماضي بالحاضر في حروفيات قريشي هو مساءلة - مضمرة على الاقل - للمستقبل، فإن احتفال "ليالي البخور"، بما توافر له من ادوات فنية اضافية، فتح أمام المشاهد مجالاً لاستشراف هذا المستقبل بوضوح اشد. الزمن الآتي الذي لم تنجل معالمه في الحروفيات، تتقراه الموسيقى والحناجر لترتسم خطوطه العريضة بألوان الولادة والموت. فوقع قطرات المطر الذي توحي به الاصوات الصادرة عن جمع من الاطفال هو فاتحة العرض، تليها مواويل تنضح بالحنين والالفة. ثم تنطلق انغام حادة كهسيس النار، لاتلبث ان تطفئها أصوات خرير الماء وطيور مغردة تخفت مع تصاعد صرخات هي اشبه بتنويعات ايقاعية تجسد الحياة في انبلاجها الاول. و تنطلق الزغاريد، فكأن النساء اخذتهن النشوة بعودة المحاربين من معركة طاحنة. ثم يطلق الكورس العنان لحنين تؤججه ذاكرة الوطن البعيد الذي يحاصره الالم.

هكذا تجمع "ليالي البخور" بين الحلم والكابوس. فحين يشع الامل يتقد الحزن، والفرح بسلامة العائدين يعيد الى البال ذكرى الذين غابوا، والولادة تتبع الموت أو تمهد له. وهكذا يهرب نتاج قريشي من المعادلات السهلة في مساءلته التي تتجنب اعادة انتاج الخطاب السلفي او استبداله بفرح مجاني خال من الحبكة الفلسفية. فالفنان لا ينظر الى الاشياء رؤية احادية، وعالمه المسكون بهمّ السؤال شتات يتصل وينفصل. وهذه التعددية تقترن بحياة موزعة على حفنة من "المنافي" لا يني يتنقل بينها قريشي المسافر دوما بين المغرب وباريس والخليج وتونس ... الا ان فضاءه اوسع من حدود الامكنة التي يعيش فيها، ومخيلته تتوق ابدا الى الانفلات والتغيير.